قراءة تاريخيّة تربويّة في كتاب "لَفْتَةُ الكَبِدِ في نصيحة الوَلَدِ لابن الجَوْزِي(ت597هـ/1201م)

A historical and educational reading of the book “Laftato el kabide fi nassihati el walad” By Ibn al-Jawzi (d. 597 AH/1201 AD)

عثماني أم الخير *

جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة – الجزائر

o.otmani@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2023/12/01	2023/05/27	2024/07/31

الملخص:

التربيّة والتعليم من أهمّ المجالات التي اهتمّ بها العلماء المسلمون، ويعدّ الإمام أبو الفرج، ابن الجوْزي(ت597هـ/1201م) من المتقدِّمين في التصنيف، وتعدّ نصيحته "لفْتَة الكبد في نصيحة الولد" أهمّ ما كتب ليرْسم بها طريق العودة إلى طريق طلب العلم لولده "أبي القاسم، بدر الدين علي"، وينبّهه إلى فائدة إصلاح الدنيا والعمل للآخرة، فكان محتوى النصيحة برنامجًا متكاملًا للتربية والتعليم لكلّ النشء في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

وتوصّلت الدراسة إلى التنبيه إلى دور الأولياء في الإشراف على تدريس أولادهم وتعليمهم ومراقبتهم، وحثّهم على التّعلم وتوفير الكتب لهم للمطالعة، ومراقبة عباداتهم حتىّ تسهُل مهمّة المعلّم في المؤسسّات التّربويّة والتّعليميّة، فكان محتوى النصيحة برنامجًا متكاملًا يجمع بين ما يكون للدنيا وما يكون للآخرة من خلال تربية الطفل، ما يؤكد ضرورة العلم للأفراد.

* المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحيّة: ابن الجوزي.؛ لَفْتَةُ.؛ الكَبِد.؛ نصيحة.؛ الولد.

Abstract:

Pedagogy and Education are among the most important Domains that Muslim scholars have paid attention to, and Imam Abu Al-Faraj, Ibn Al-Jawzi (d. 597 AH/1201 AD) is considered one of the first in the classification, and his advice, "Laftato el kabide fi nassihati el walad" is considered the most important thing he wrote to chart the way back to the path of seeking knowledge for his son"Abu Al-Qasim, Badr Al-Din Ali" He alerts him to the benefit of reforming this world and working for the afterlife, so the content of the advice was an integrated program for education and instruction for all young people in every time and place.

The study concluded that the role of guardians in supervising, educating, and monitoring the teaching of their children, urging them to learn, providing books for them to read, and monitoring their acts of worship in order to facilitate the task of the teacher in educational institutions, so the content of the advice was an integrated program that combines what is for this world and what is for the hereafter through education. Children, which confirms the necessity of education for individuals.

Key words: Ibn al-Jawzi; Gesture; Liver; advice; the boy.

مقدمة:

كثيرةٌ هي الإشارات إلى موضوع التربيّة والتّعليم في كتب التّراجم والحوليات التّاريخيّة وكُتُب التّراث الأدبي وغيره، أهمّها ما كتبه الجاحظ(ت255هـ/869م) في كتاب "البيان والتّبيّين"، و"رسالة المعلّمين"، وما كتبه الإمام أبو حامد الغزالي (ت555هـ /1111م)، في كتابيه: "أيّها الوَلَد"، و"إحياء علوم الدّين" أو ما أشار إليه العلّامة ابن خلدون (808هـ/1406م) في مقدّمته، وما شدَّ انتباهي أكثر هو، محتوى النّصيحة في كتاب" لَفْتَةُ الكَبِد في نصيحة الوَلَد" التي أسدى بها المؤرّخ ابن الجوْزي(ت597هـ/1201م) لابنه الذي هَجَر الكُتُب والدّرْس ليسترشده بالعودة إلى حلْقة العلم، مُسَطِّرًا له برنامجًا خاصًّا،

فما مضمون النصيحة؟ وهل يمكن استعماله كمَنْحَى تربوي إصلاحي لإصلاح المنظومة التّربويّة؟ وما جديدها؟.

هذه الدراسة ستُعالج في عناصر، حسب محتوى النصيحة سبب كتابة النصيحة ومنهجها، ثمّ الحثّ على طلبِ العلم والزُّهْد فيه، فواجبات المتعلِّم، ثمّ مراحل التّعلُّم، مع ذِكْر آداب المتعلِّم مع المعلِّم، ثمّ واجبات المتعلِّم مع نفسه، ويتعرّض كاتبها إلى فضلِ التّعلُّم والعلم.

1 – سبَبُ النّصيحة ومَنْهج كتابتها:

بدأ المؤلِّف النّاصح الإمام ابن الجوْزي[1]، صاحب التّصانيف الكثيرة[2] نصيحته بتقديمٍ وجيزٍ، ذكر في مقدّمته السّبب الباعث على كتابته لها"الحمد لله الذي أنْشَأَ الأَبَ الأكبر من ترابٍ، وأخرج ذُرِيّتَه من التّرائبِ والأصْلاب، وعَضَد العشائر بالقرابة والأنساب وأَنْعَم عليَّ بالعلم والعِرْفان الصواب"[3]، مُشيدًا بحُسن تربيته في مراحله العُمْريّة المختلفة "وأحْسَنَ تربِيَتي في الصِّبا وحَفِظني في الشباب"[4]، وحَمِد ربَّه على نعمة الإنجاب" ورَزَقني ذريةً أرجُو بهم وُفُورَ الثواب"[5].

ويعرّج بالذكر إلى استجابة الله له نتيجةَ دعائه بالإنجاب" أمّا بعد، فإنّي لما عرفتُ شرَف النكاح وطلبَ الأولاد ختمتُ ختمةً وسألتُ الله تعالى أن يرزقني عشرةَ أولادٍ فرزَقَنيهِم فكانوا[6] خمسة ذكورٍ، وخمسَ إناثٍ"[7]، لكنّ الموت يأخذُ منه بعض الإناث ولا يُبقِي له إلاّ على ولدٍ واحدٍ" فمات من الإناث اثنتان ومن الذكر أربعة"[8].

وهذا الابن هو الذي يذكُرُه بالاسم في نصّ نصيحته، هذه داعيًا إلى الله بأنْ يكون له خيرُ خلَفٍ لخير سَلَفٍ" فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألتُ الله تعالى أن يجعل فيه الخلَف الصالح، وأن يبلُغَ به المنى والمَنَاجِح"[9]، ليُعرّج بعدها مباشرةً على ذِكْر السّبب في كتابته لهذه النّصيحة، في شكل رسالة موجَّهة إليه، ومِنْ ثَمَّ إلى كلّ ابنٍ ضَلَّ

وابتعد عن حَلْقَة الدّرس كحال ابنه المذكور" ثمّ رأيتُ منه نوع من تَوانٍ عن الجِدِّ في طلب العلم فكتبتُ هذه الرسالة"[10] .

والإمام المؤرّخ ابنُ الجَوْزي يدعو ابنه الضّال هذا إلى سلوك مَسْلكه؛ أي: مبدأ التّقليد لِما فعل والده في مجال العلم تحديدًا "أحثُّه بها وأُحرّكُه على سلوك طريقي في كسْب العلم"[11]، دون أن ينسى تذكيره بالعودة إلى الله في كلّ مسلكه؛ إذ الله هو الموفّق "وأدّلُه على الالتجاء إلى الموّفق سبحانه وتعالى، مع علمي بأنّه لا خاذِل لِمَنْ وَفَّق ولا مُرْشِد لمناضلٍ"[12]، وهي تتقارب مع ما نَصَح به الإمام أبو حامد الغزالي[13] تلميذه "إنّي أنصحُك بثمانيّةِ أشياء اقْبَلْها لئلّا يكون عليك خَصْمًا يوم القيامة"[14] .

قسّم نصيحته منهجيًا إلى فصولٍ، كان أوّلُها، فصل "ترغيبٍ وترهيبٍ بين يدَيْ هذه الوصية النّافعة"؛ إذ حثَّه على استعمال العقل في معرفة حقِّه إزاء الله ونفسِه؛ أي: ضرورة التّفكير والتّدبير فيما هو كائن، ومَنْ الواجد لهذا الكائن، ويتفكّر في عواقب مَنْ زَلَّ وضَلَّ الطريق السَّوِي[15]، وهي نفسها طريقة الوُعّاظ[16]والزُّهّاد في الدّولة الإسلاميّة.

2- الحثّ على طلبٍ العلم والزُّهْد فيه:

أوّل ما نبّهه إليه هو، التزام تطبيق ما فرض الله "واعلم أنّ أداء الفرائض واجتناب المحارم لازِم، فمتى تعدَّى الإنسان فالنّار النّار"[17]، وبطريقة كلامٍ ككلامِ المتصوّفة، يستخدم مصطلحاتهم "ثمّ اعلم، أنّ طلب الفضائل نهاية مرادِ المجتهدين"[18] التي هي ليست نفسها عند كلّ النّاس، ولذلك يشير إلى تفاوتها من واحدٍ إلى آخر" ثمّ الفضائل تتفاوت، فمِنَ النّاس مَنْ يرى الفضائل الزُّهد[19] في الدّنيا، ومنهم مَنْ يراها التّشاغل بالتّعبُّد وعلى الحقيقة"[20]، وهي كلّها بالنسبة إليه تتّعلّق بقضيّة علاقةِ العبد المؤمن بخالقه، إلّا أنّه يراها

بمنظورٍ دنيوي أخروي وهو التّوفيق بين العلم والعمل"فليست الفضائل الكاملة إلاّ الجمْعُ بين العلم والعمل"[21] .

ويقدّم عاقبة الجمع بينهما، بأنّها الرجوع إلى الله "فإذا حَصَلَا رفَعَا صاحبها إلى تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالى وحَرّكَاه إلى محبّته وخشيته والشّوْق إليه، فتلك الغاية المقصودة وعلى قدْر أهل العزْم تأتي العزائم، وليس كلُّ مريدٍ مُرَادًا ولا كلُّ طالبٍ واجِدًا ولكن على العبد الاجتهاد، وكلٌّ مُيَسَرٌ لِما خلَق له. والله المستعان"[22] .

3- واجبات المتعلِّم:

دعى الإمام ابن الجَوْزي ولده إلى التّأمّل في دليل صدق الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وأكبر الدّلائل القرآن الكريم الذي أعجز الخَلْق أن يأتوا بسورةٍ من مثله، فإذا ثبت عنده وجود الخالق -جلّ وعلَا- وصَدَق الرّسول —صلّى الله عليه وسلّم- وجَب تسليم عِنانِه إلى الشرع، فمَتى لم يفعلْ دَلَّ على خَلَلٍ في اعتقاده[23]، ثمّ يجب عليه أن يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزّكاة، إنْ كان له مال والحجّ، وغير ذلك من الواجبات فإذا عرَف قدْرَ الواجب قام به[24]، فينبغي لِذِي الهِمّة أن يترَقّى إلى الفضائل فيتشاغل بحفظ القرآن[25] وتفسيره، وبحديث الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وبمعرفة سِيرته وسِيَرِ أصحابه والعلماء بعدَهم ليتخَيَّر مرتبة الأعلى فالأعلى[26] .

ويؤكّد ضرورة معرفة قواعد اللّغة العربيّة والفقه "ولابدّ من معرفة ما يُقَيِّم به لسانه من النّحو ومعرفة طَرَفٍ مستعملٍ من اللّغة والفقه[27] أصْلَ العلوم، والتّذكيرٌ حلواؤُها وأعمُّها نفعًا"[28]، دون أن ينسى تنبيهه إلى محتوى مصنّفَاتِه[29] التي تُغني ابنه في هذا الباب "وقد رتّبتُ في هذه المذكورات من التّصانيف ما يُغني عَن كلِّ ما سبق من تصانيف القدماء وغيرها، بحمد الله ومَنّهِ، فأغنيتُك عن تطَلُّبِ الكتب وجمْعِ الهِمّم للتّصنيف، وما تقفُ همّةٌ إلاّ لخساسَتها، وإلاّ فمتى غَلَّتْ الهِمّة فلا تقنَع إلّا بالدُّون"[30] .

ويُضيف الإمام ما توصّل إليه ببحثه "وقد عرفتُ بالدّليل أنّ الهمّة مولودة مع الآدمِّي، وإنّما تقصر بعضُ الهمّم في بعض الأوقات فإذا حُثَّتْ سارت، ومتى رأيتَ في نفسك عجزًا، فسَلْ المنعِمَ أو كَسَلًا فالجَأْ إلى الموّفِق فلن تنال خيرًا إلّا بطاعته، ولا يفُوتك خيرٌ إلّا بمعصيته، فمن الذي أقبل عليه فلم ير كلّ مرادٍ، ومَن الذي أعْرض عنه فمضى بفائدة أو حضِيّ بغرضٍ من أغراضه"[31].

وفي فصل"واتّقوا الله ويعلّمكم الله" وجّه الإمام لولده الضال عن طريق العلم والدرس أمرًا" وانظُرْ يا بنيّ إلى نفسك عند الحدود فتلَمَّحْ كيف حِفظك لها، فإنّه مَنْ رَاعَى رُوعِيَ ومَنْ أَهمَل تُرِك، وإنّي لَأَذْكُر لك بعض أحوالي لعلّك تنظُرُ إلى اجتهادي وتسأل الموّفِق لي، فإنّ أكثرَ الإنعام عليَّ لم يكن بِكَسْبي، وإنّما هو بتدبير اللّطيف بي[32].

4- مراحل التّعلُّم:

يستعرض المؤرّخ ابن الجَوْزي لولده مسار حياته العلميّة منذ الصِغر، ومكان تعلّمه "فإنّي أذكرُ نفسي، لي همّة عاليّة وأنا في المكتب. ابن ستِّ سنين"[33]، وأنّه كان مُتخَيِّرًا لأصحابه، فمنذ الصِغر صاحَب الكبار"وأنا قرينُ الصبيان الكبار قد رُزقتُ عقلاً وافرًا في الصغر، يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكرُ أنّني لعبتُ في طريقٍ مع الصبيان قطُّ ولا ضحكتُ ضحكًا خارجًا"[34] .

وينتقل إلى المرحلة العُمريّة الثانيّة، في التّسع سنين التي ينتقل فيها من المكتب إلى المسجد، وعليه فالمؤسسّة الثّانية للتّعلّم كانت المسجد "حتّى أنّي كنتُ وليَّ تسع سنين أو نحوها، أحضُرُ رحْبة الجامع"[35]، والظّاهر أنّه كان هناك تمييز بين شيوخ العلم، فكانوا محلّ تخيّير مَنْ يدرُسُ عندهم، ولذلك كان ابن الجوْزي يتخيَّر منهم[36]، وهذا دليلٌ على عدم وجود برنامج خاص بحلْقات الدّروس المسجديّة التي كان أوّلُها دروس الحديث النّبوي

والسِّير، وهو ما يستدعي الحفظ " فلا أتخيَّر حلْقةَ مشعبذٍ؛ بل أطلبُ المحدِّث فيتحدّث بالسِّيَر "[37].

وينبّه ابنه إلى طريقة التّعلّم في أوّلِ سنوات العُمر، بأنّها تتمثّل في الحفظ، ثمّ التّقييد بالكتابة عند العودة إلى البيت " فأحفظُ جميع ما أسمعُه وأذهبُ إلى البيت فأكتبه"[38] ويذكر فضل بعض شيوخه[39] عليه في أخْذه إلى حلْقات العلم من مكانٍ إلى آخر للاستزادة "ولقد وفَّق لي شيخنا أبو الفضل بن ناصر –رحمه الله– وكان يحملني إلى الشيوخ فأَسْمَعني المسْنَد وغيره"[40] .

ويؤكّد دور شيوخه وخاصّةً شيخه هذا في تحضيره للمرحلة التّعلّميّة الموالية، دون إخباره بما فيها، وذلك من حيث اطّلاعه على كُتُب الكبار"من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يُراد منّي، وضبَط لي مسموعاتي إلى أن بلغتُ، فناولني ثبْتَها، ولازمتُه إلى أن توفيّ–رحمه الله–، فنلتُ بها معرفة الحديث والنّقل"[41] ، ما يبيّن أنّ الإجازة كانت تتّم بعد حفظ وإتقان فهم كُتُبٍ محدّدة.

ويستعرض الإمام ابن الجوْزي ما فاته من مرحلة الصبا؛ إذ ضحّى بما عاشه الصبيان "ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دِجلة، ويتفرّجون على الجِسر، وأنا في زمن الصِغر آخُذ جزءًا، وأقعدُ حجْزة من النّاس إلى جانب الرِّقة فأتشاغل بالعلم"[42]، مستعرضًا لطريقته بالصوم والزّهد وتقليل الطعام"[43]، " ثمّ أُلْهمتُ الزّهد، فسرَدْتُ الصوم وتشاغلت بالتّقلّل من الطعام"[44]، مقدّمًا له برنامجه العلمي، من سماع الفقه والوعظ والحديث، ثمّ قراءة اللّغة العربيّة "وألزمتُ نفسي الصبر فاستمرّت، وشمّرتُ ولازمتُ وعالجتُ السّهر، ولم أقنع بفنٍّ من العلوم؛ بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث، وأتبع الزّهاد، ثمّ قرأتُ اللّغة"[45] .

5– آداب المتعلِّم مع المعلِّم:

ذهب ابن الجوْزي إلى حضور كلّ حلْقات الدّروس[46] التي يبدو أنّه لم يعُدْ يتخيّر شيوخها؛ ربّما لكِبره وقدرته على التمّييّز "ولم أترك أحدًا ممّن يروي ويعظ، ولا غريبًا يقدُمُ إلاّ وأحضُره وأتخيّر الفضائل"[47] حتّى صار ملجأً للسائلين من طلبة العلم يسألونه في أمورٍ فيجيب بما فيه الحقّ "وكنت إذا عُرِض لي أمران، أقدّم في أغلب الأحوال الأحقّ الحقّ"[48]، ويشكر الله في كلّ الأحوال الذي حفظه وأبعد عنه كيد الحسّاد "فأحسن تدبيري وتربيتي وأجراني على ما هو الأصلح لي، ودفع عنّي الأعداء والحسّاد[49]، ومن يكيدني، وهيّأ لي أسباب العلم"[50]، مؤكدًا على توفر المعين عنده من الكتب "وبعث إليّ الكتب من حيث لا أحتسب"[51]، وهو ما يؤكد ضرورة المطالعة ووجود المكتبات للارتياد للمتعلِّم.

ويُظْهر لابنه أساليب التّعلّم من حفظٍ وفهمٍ وخطٍّ؛ أي: الحفظ، ثمّ الفهم، ثمّ تقييّد العلم بالكتابة[52]، ثمّ تصنيف الكتب" ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخطّ وجودة التّصنيف"[53]، ويشكر الله الذي حببّ فيه النّاس[54]، وهذا فيه مدعاة لابنه لمعاملة النّاس معاملة تجذبهم إليه "ولم يعُوزن شيئًا من الدّنيا؛ بل ساق إليّ من الرّزق مقدار الكفاية وأزْيَدَ، ووضع لي من القَبُول في قلوب الخَلْق فوق الحدّ"[55] .

وكشرطٍ أساسي لتقبّل ما يقوله لهم، وهذه إحدى وسائل التّعلّم "وأوْقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحبته"[56]، حتّى كان من بين الذين يحضرون دروسه أهل الذّمّة الذين استطاع بقدرته إقناعهم ودفْعهم لتدبّر أحوالهم فدخلوا الإسلام"وقد أسلم على يديْ نحو من مائتي من أهل الذّمّة"[57]، وذلك من خلال المجالس التي يقوم فيها للوعظ والدّرس "ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعتُ أكثر من عشرين ألف سالفٍ ممّا يتعاناه الجُهّال"[58].

ويحثّه على السّعي في طلب العلم من مشايخه خارج مدينته وسط كثيرين، حتّى كان يسابق للوصول إلى تلك المجالس قبل طالِبيها من غيره"ولقد كنتُ أدُور على المشائخ لسماع الحديث، فينقطع نفسي من العَدْو لئلّا أُسبَق، وكنت أُصْبِح وليس لي مأكَل، ما أذَلّني الله لمخلوق قطّ، ولكنّه ساق رزقي لصيانة عرضي، ولو شرحتُ أحوالي لطال شرحي"[59] .

6- واجبات المتعلِّم مع نفسه:

وأهمّ ما نبّه الإمام ابن الجوْزي ولده الضّال إليه هو، اغتنام وقته في فصلِ "حِفظ الأوقات واغتنام اللّحظات" "فانْتبِهْ يا بنيّ لنفسك وانْدَم على ما مضى من تفريطك"[60] ومحاولة تعويض ما فاته من علمِ"واجتهدْ في لَحاق الكاملين مادام الوقت سِعة، واسْتَقِ غُصنك ما دامت رطوبة فيه، واذكرْ ساعتك التي ضاعت فكفى بها عِظة، ذهبتْ لذّة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل، وقد كان السّلف الصالح -رحمهم الله- يحبون جمع كلّ فضيلة، يبكون على فوات واحدة منها"[61] .

ويذكر له بين الحين والآخر سِيَّر لبعض مَن كان مُولعًا بطلب العلم عندهم[62]، ويذكره بضرورة اغتنام الوقت "واعْلمْ يا بنيّ أنّ الأيام تبْسُطُ ساعات والساعات تبسُط أنفاسًا وكلّ نفسٍ خزانة، فاحذرْ أن يذهب نفَسٌ بغير شيء[63]، فترى في القيامة خزانةً فارغة فتندم"[64]، ويستشهد ببعض ما قام به السّلف كرابعة العدويّة[65] "وقد كان السّلف يغتنمون السّاعات"[66].

ولإبْعاد اليأس عن ولده ذكّره بأنّه ليس عيبًا أن ينتبه الغافل من غفلته؛ ليغتنم وقته وجهده للوصول إلى الفضل، مستشهدًا له بمن يشبهه في ذلك، في فصل "الانتباه من بعد الغفلة" "ولا يُؤْيِسُك يا بنيّ من الخير ما مضى من التّفريط، فإنّه قد انتبه خلقٌ كثير بعد الرُّقاد الطويل"[67]، ويسرد له ما أخبره به مجرِّبٌ لهذا وعائِدٌ من غفلة بفضل نصيحة والده

له، دليلًا على مهمّة الأولياء والوالدين في تنبيه أولادهم الضّالين عن طريق الجادّة والعازفين عن حلْقة الدّرس والعلم عمومًا.

وممّا استدلّ به الإمام ابن الجوْزي"فقد حدّثني الشيخ أبو حكيم –رحمه الله– قال:"كنتُ في صَبْوَتي متشاغلًا بالبطالة، غير ملتفتٍ إلى العلم فأحضرني أبي، أبو عبد الله –رحمه الله تعالى– وقال لي:"يا بنيّ. لستُ أبْقَى لك أبدًا، فخذْ عشرين دينارًا وأَفتحُ لك دكانَ خبّاز وتكَسَّبْ، فقلتُ له:"ما هذا الكلام؟ قال:" فأفتحُ دكان بزَّاز"، فقلت: كيف تقول لي هذا وأنا ابن قاضي القضاء عبد الله الدّامْغاني؟" قال: "فما أراك تطلُبُ العلم"، فقلت: "أُذْكُرْ لي الدّرس السّاعة، فذكَرَ لي، فما قبلتُ على التّشاغل بالعلم، فعند ذلك أقبلتُ على الاشتغال بالعلم واجتهدت ففتحَ الله تعالى"[68].

ويقدّم له دليلًا آخر على نجاح تجربةَ نُصْحِ الأب لولده المشتغلِ بغير العلم للعودة إلى العلم"وحكى لي بعض أصحاب أبي. محمّد الحَلْوَاني –رحمه الله– قال:"مات أبي وأنا ابن إحدى وعشرين سنةً، وكنت موصوفًا بالبطالة فأتيتُ أتقاضى بعض سكان دارٍ قد ورِثْتُها فسمعتهُم يقولون: "جاء المِدْبِر؛ أي، الرَّبِيط"، فقلتُ في نفسي: "يُقال عنّي هذا؟" فجئتُ إلى والدتي، فقلت: "إذا أردْتِ طَلَبِي فاطْلُبيني من مسجد الشيخ أبي الخطّاب" [69]، وأكملَ خبره باستمراره في طريق طلب العلم بقوله:"ولازمتُه فما خرجتُ إلّا إلى القضاء فصرتُ قاضيًا مدّة"[70]، فذكر ابن الجوْزي بما شاهده"ورأيتُه أنا وهو يَفْتي ويناظر"[71].

ويستعرض الإمام ابن الجؤْزي لولده برنامجًا يوميًا للدّراسة وطلَب العلم، في فصل "منهجٍ تربوي في اليوم واللّيلة" "فالْزِم نفسَك يابنيّ الانتباه عند طلوع الفجر، ولا تتّحدّث بحديث الدّنيا فقد كان السّلف الصالح –رحمهم الله– لا يتكلّمون في ذلك الوقت بشيءٍ من أمور الدّنيا"[72]، وقُلْ عند انتباهك من النّوم: "الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه

النّشور–الحمد لله الذي يُمسك السّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه. إنّ الله بالنّاس لرؤوفٌ رحيم"[73].

ويوصيه بالطهارة "ثمّ قُمْ إلى الطهارة واركَعْ سُنَّةَ الفجر واخرُجْ إلى المسجد خاشعًا في طريقك، وقُلْ في طريقك: "اللّهم إنّي أسالك بحقّ السّائلين عليك ممْشاي هذا أنّي لم أخرج أشْرَا ولا بَطرًا ولا رياءً ولا سُمعةً، خرجتُ اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تجُرَّني من النّار وأنْ تغفر لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت"[74].

و يحبّبُه في الصلاة "واقْصِدْ الصلاة إلى يمين الإمام، فإذا فرغْتَ من الصلاة، فقُلْ:"لا إله إلّا الله وحده لا شريك، له الملك وله الحمد يُحيِّ، ويُميت بيده الخير وهو على كلّ شيءٍ قدير"عشر مرّات، ثمّ سبّح عشرًا واحمد عشرًا وكبّرْ عشرًا واقرأْ آية الكرسي، واسألْ الله قبول الصلاة، فإن صحَّ فاجْلِس ذاكرًا الله تعالى إلى أن تطْلع الشمس وترتفع، ثمّ صلِّ وترَكَّع ما كتبَ لك، وإن كان ثمانِ ركعات فهو حسن"[75].

7– فضل التّعلُّم والعلم:

ويبرز الإمام ابن الجوْزي في نص نصيحته لولده في فصل، "العلم أفضلُ من كلّ نافلة"، بإعادة الدّروس والمطالعة، فصلاة النّافلة بعد الفراغ من التّعلّم، ويكون التّعلّم والمطالعة بين الصلوات"فإذا أعدْتَ درسَك إلى وقت الضحى الأعلى فصَلِّ الضحى ثماني ركعات، ثمّ تشاغلْ بمطالعةٍ أو نسخٍ إلى وقت العصر، ثمّ عدْ إلى درسك من بعد العصر إلى وقت المغرب، وصلِّ بعد المغرب ركعتين بجزأين، فإذا صليت العشاء، فعُدْ إلى دروسك، ثمّ اضطجِع على شقّك الأيمن فسبّح ثلاثًا وثلاثين وأحْمِد ثلاثًا وثلاثين وكبّر أربعًا وثلاثين، وقُلْ:"اللّهم قِني عذابك يوم تجمع عبادك"، وإذا فتحتَ عينيك من النّوم فاعلم أنّ النّفس قد أخذت حظّها، فقُمْ إلى الوضوء، وصلّ في ظلام اللّيل ما أمكن واستفتِح بركعتين خفيفتين، ثمّ

بعدهما ركعتين بجزأين من القرآن، ثمّ تعود إلى درس العلم، فإنّ العلم أفضل من كلّ نافلة"[76]

.

ولحماية طريق ابنه من الانحراف والزّيغ أفْرد له فصلًا "في الحذر من الآفات والعوائق وملازمة صداقة الكتب وفهم ما فيها والوعي به" "وعليك بالعزلة فهي أصلُ كلّ خيرٍ، واحذر من جليس السّوء ولْيكنْ جلساؤك الكتب والنّظر في سِيّر السّلف ولا تشتغل بعلم حتّى تُحْكِم ما قبله، وتلمَّحْ سيّر الكاملين في العلم والعمل ولا تقنع بالدُّون"[77].

ويصف له شرَف طلب العلم عند من لازم ذلك "واعلم أنّ العلم يرفع الأراذل فقد كان خلقٌ كثيرٌ من العلماء لا نسَبَ لهم يُذْكَر ولا صورة تُستحْسَن، وكان عَطاء بن أبي رباح[78]، أسود اللّون، مستوحِش الخِلقة، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك[79]، وهو خليفة ومعه ولداه فجلسوا، يسألونه عن المناسك فحدَّثهم وهو مُعرِضٌ عنهم بوجهه، فقال الخليفة لولديه "قُومَا ولا تنِيَا، ولا تكاسلا في طلب العلم، فما أنْسَى ذُلَّنا بين يديْ هذا العبد الأسْوَدِ"[80]، مع العلم أنّه مصنَّف في باب المعلّمين وممّن لا يأخذون أجرًا على تعليمهم للصبيان[81]، ويُورد له مثالًا آخر عن سيرة[82] الحسن[83] "وكان الحسن مَوْلَى؛ أي، مملوكًا...وخلقٌ كثير، وإنّما شُرِّفوا بالعلم والتّقوى"[84] .

كان الإمام الحسن يدعو إلى التّغيير بإصلاح النفوس؛ أي، يرمي إلى إصلاح الفرد عن طريق مراقبة النّفس قبل إصلاح الجماعة، فإذا تمَّ ذلك وهو أمرٌ عسيرٌ، لأنَّ ذلك رياضة مُتجدِّدة، تُوَلِّد العزم؛ أي، الإرادة الحقيقيّة المسيطرة ولكي تكون، ينبغي على الإنسان أن يُصيب حقيقة الإيمان والطريق إليه هو، مراقبة النّفس والتّجاوُز عن عيوب نفوس الآخرين[85].

ويحثّه في فصل"العفّة عمّا في أيدي النّاس":"واجتهِدْ يا بنيّ في صيانة عِرْضك من التّعرُّض لطلب الدّنيا والذّل لأهلها واقْنَع تُعَزّ، فقد قيل:"مَنْ قَنَع بالخبز والبَقل لم يستعبده أحد"[86]، ويُذَكِره بما كان عند جدّه من مالٍ "واعلم يابنيّ، أنّ أبي كان مُوسرًا وخلّف ألوفًا من المال، فلمّا بلغتُ دفعوا لي عشرين دينارًا ودارَيْن وقالوا لي: "هذه التّركة كلّها فأخذتُ الدّنانير واشتريتُ بها كُتبًا من كتب العلم وبِعْتُ الدّارين وأنفقتُ ثمنها في طلب العلم ولم يبق لي شيءٌ من المال، وما ذَلَّ أبوك في طلب العلم قطّ، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوُعّاظ ولا بعث رقعةً إلى أحدٍ، يطلبُ منه شيئًا قطّ، وأمورُه تجري على السَّداد"[87].

وفي فصل"متّى صحَّتْ التّقوى رأيتَ كلّ الخير"كتب لابنه"يا بنيّ، ومتّى صحَّتْ التّقوى رأيتَ كلّ الخير والمتّقِي لا يُرائي الخَلق ولا يتعرّض لما يؤذي دينه، ومَنْ حفِظ حدود الله، حفظه الله[88]، وفي فصل "مِنْ سِيَرِ السّلف الصالح تركُ له هذا" قال الإمام ابن الجوْزي لولده:"وينبغي أن تسمو همّتك إلى الكمال فإنّ خلقًا وقفوا مع الزّهد وخلقًا تشاغلوا بالعلم، ونَرَى أقوامًا جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل، واعلم أنّي قد تصّفحتُ التّابعين ومَن بعدهم، فما رأيتُ أحظى بالكمال من أربعة أنفسٍ، سعيدٌ بن المسَيَّب[89]، والحسن البصري، وسُفيان الثَوْري[90]، وأحمد بنُ حنبل[91] –رضيّ الله عنهم– وقد كانوا رجالًا؛ وإنّما كانت لهم همّمٌ ضعُفت عندنا، وقد كان في السّلف خلقٌ كثير لهم همّمٌ عاليّة، فإذا أردتَ أن تنظُرَ إلى أحوالهم فانظُرْ في كتاب "صِفَةُ الصَفْوة"، إنْ شئتَ تأمَّل أخبار سعيدٍ والحسنِ وسفيان وأحمد –رضيّ الله عنهم–، فقد جمعتُ لكلّ واحدٍ منهم كتابًا"[92].

وفي فصل"الحفظ رأس مالك ذكرّه بالتّركة العظيمة التي تركها له" "وقد علمتَ يابنيّ أنّي قد صنّفتُ مائة كتابا فمنها التّفسير الكبير، عشرون مجلّدًا، والتّاريخ، عشرون مجلّدًا، وتهذيب المسند، عشرون مجلّدًا، وباقي الكتب بين كبارٍ وصغارٍ، يكون خمس مجلّدات ومجلّدين وثلاثة وأربعة وأقلّ وأكثر كفيتُك بهذه التّصانيف عن استعارة الكتب وجمْع الهمّم في التّأليف،

فعليك بالحفظ، وإنّما الحفظ رأس المال والتّصرف ربح، وأصدق في الحاليْن في الالتجاء إلى الحقّ سبحانه وتعالى، فراع حدوده"[93].

ويحذّر الإمام ابن الجوزي ولده من الآتِ وهو كلامٌ يشبه ما كتبه الإمام الغزالي في كتابه أيّها الولد[94] ومغبّة ترْك طلب العلم مقابل التودّد إلى السلطان، وطلب ملّذات الدنيا "وإيّاك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإنّ الدّاخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدّنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمُنعوا البركة والنّفع"[95].

وفي فصل "العلم والعمل متلازمان" أوصاه في شكلِ تحذيرٍ"وإيّاك أن تتشاغل بالتّعبّد من غير علمٍ، فإنّ خلقًا كثيرًا من المتزهّدين والمتصوّفة ضلّوا طريق الهدى؛ إذ عملوا بغير علمٍ، واستُرْ نفسك بثوْبين جميلين، لا يُشْهِرانك بين أهل الدّنيا برفْعتهما ولا بين المتزّهدين بصنعتهما، وحاسبْ نفسك عند كلّ نظرةٍ وكلمةٍ وخطوةٍ فإنّك مسؤولٌ عن ذلك، وعلى قدرِ انتفاعِك بالعلم ينتفع السّامعون، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يُزَّل الماء الحَجر، فلا تعِظنّ إلا بنيّةٍ، ولا تمشيَّن إلاّ بنيّةٍ، ولا تأكلنّ لقمةً إلاّ بنيّةٍ، ومع مطالعة أخلاق السّلف، ينكشف لك الأمر"[96].

وفي فصل "من روائع التّصانيف" يأمره بمطالعة بعض من كتب الإمام ابن الجوْزي لهذا الولد"وعليك بكتاب "منهاج المريدين" فإنّه يعلّمك السّلوك فاجْعَلْه جليسك ومعلِّمك، وتلمَّح كتاب "صيد الخاطر" فإنّك تقع بواقعات، تُصْلح لك أمر دينك ودنياك، وتحفَظ كتاب "جَنّة النّظر" فإنّه يكفي في تلقيح فهمِك للفقه ومتى تشاغلت بكتاب "الحدائق"، أطْلَعَك على جمهور الحديث، وإذا التفتّ إلى كتاب "الكَشف"، أبان لك مستور ما في الصحيحين من جمهور الحديث"[97]، ونهاه عن مطالعة مصنّفات العجم في باب التّفسير "ولا تتشاغلن بكتب التّفاسير التي صنّفتها الأعاجم، وما ترك "المغْني"، و"زاد المسير" لك

حاجة في شيءٍ من التّفسير، وأمّا ما جمعتُه لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلًا"[98] .

وفي فصل"صفة الواعظ النّافع أمره" قال الإمام ابن الجوْزي لولده"وكُنْ حَسن المداراة للخلْق، مع شدّة الاعتزال عنهم، فإنّ العزلة راحة من خلطاء السّوء ومُبْقيّة للوَقار، فإنّ الواعظ خاصّةً ينبغي له أن لا يُرى مُتبذِّلًا ولا ماشيًا في السوق ولا ضاحكًا ليَحْسُن به الظّن فيُنتفع بوعظه، فإذا اضطرّرْت إلى مخالطة النّاس فخالِطهم بالحُلم عنهم، فإنّك إنْ كشفتَ عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم"[99].

وفي فصل"آداء الحقوق" أمره بالآتي"وَأَدِّ إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه من زوجةٍ وولدٍ وقرابةٍ، وانظُر كلّ ساعة من ساعاتك لما تذهب فلا تُودِعْها إلاّ أشرف ما يمكن، ولا تُهْمل نفسك، وعوِّدْها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه، وابعثْ إلى صندوق القبر ما يسّرك يوم الوصول إليه، كما قيل: "يا من بدنياه اشتغل وغَرّه طول الأمر، الموت يأتي بغتةً والقبر صندوق العمل، وراعِ عواقب الأمور، عليك الصبر عن كلّ ما تشتهي وما تكره، وإنْ وجدتَ من نفسك غفلةً فاحْمِلها إلى المقابر، وذكرِّها قرب الرّحيل، ودبِّر أمرك، والله المدّبر في إنفاقك من غير تبذير لئلّا تحتاج إلى النّاس، فإنّ حفظ المال من الدّين، ولئِنْ تُخَلِّف لورثتك من أن تحتاج إلى النّاس"[100].

وفي نهاية نصيحته هذه أفرد فصلًا، في خاتمة حسنة ذكره فيها بنسبه"يا بنيّ، واعلم أنّنا من أولاد أبي بكر الصّديق –رضيّ الله عنه–، وأبونا القاسم، محمّد بن عبد الرّحمن بن أبي بكر بن محمّد بن أبي بكر –رضيّ الله عنه–، وأخباره موثّقة في كتاب "صِفة الصَفْوَة"، ثمّ تشاغلَ سلفُنا بالتّجارة والبيع والشراء، فما كان من المتأخّرين مَن رُزق من رِزق همّة في طلب العلم غيري، وقد آل الأمر إليك، فاجتهدْ أنْ لا تُخَيِّب طلبي فيما رجوْته فيك وقد أسلمتُك إلى الله سبحانه وتعالى وإيّاه أسأل أن يوفّقك للعلم والعمل، وهذا لأقَدِّر اجتهادي في

وصيّتي، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم والحمد لله مزيد الحامدين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم"[101].

خاتمة:

وهكذا يتبيّن أنّ للأولياء وخاصةً الوالدين دورًا كبيرًا في الإشراف على تدريس أولادهم وتعليمهم ومراقبتهم، وحثّهم على التّعلم وتوفير الكتب لهم للمطالعة، ومراقبة عباداتهم حتّى تسهُل مهمّة المعلّم في المؤسسّات التّربويّة والتّعليميّة.

في نص النصيحة برنامج متكامل يجمع بين ما يكون للدنيا وما يكون للآخرة من خلال تربية الطفل.

أهميّة الفضيلة في حياة الفرد، ومجالسة الصلحاء ومجانبة رفقاء السوء في تقويم سلوكيات الأبناء.

التأكيد على فضيلة توريث الأولاد طلب العلم لأنّه خيرٌ من المال.

هذه الدراسة يمكن أن تفتح مجالًا لدراساتٍ مستقبليّة عن تأثير هذا المنهج التربوي في تنشئة الأجيال زمن الإمام ابن الجوْزي وبعده، مع إبراز تأثير هذا المنهج في التربيّة والتعليم ومناهجها في كلٍّ من إفريقيّة والأندلس وعموم الغرب الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الجاحظ(عمرو بن بحربن محبوب ت255هـ)، رسائل الجاحظ(الرّسائل الأدبيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم ، الطّبعة الأخيرة2004م، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان.

2. .....، البيان والتّبيّين ، الطّبعة الأولى ، (1430ه/2009م) ، دار إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان.

3. ابن جَماعة الكِناني(بدر الدّين، محمّد بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي 639ه 733ه)، تذكرة السّامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم وبذيله ثلاثة ملاحق مفيدة ، اعتنى

به، محمّد بن مهدي العجمي ، الطبعة الثّالثة ، (1433هـ 2012م) ، طبعة منقحة ومزيدة ، دار البشائر الإسلاميّة ، بيروت، لبنان.

4. ابن الجوْزي(أبو الفرج)، لفتة الكبد في نصيحة الولد نصح بها ولده أبا القاسم، بدر الدّين علي المولود 551هـ ت 630هـ، شرح وتحقيق، أشرف عبد المقصود بن عبد الرّحيم -عفا الله عنه- ، ط1 ، 1412هـ، مكتبة الإمام البخاري ، مصر، الإسماعيليّة.

5. ابن خلدون(عبد الرحمن)، المقدّمة ، الطّبعة السّابعة ، (1409هـ/1989م) ، دار القلم، بيروت ، لبنان .

6. الذّهبي(الإمام شمس الدّين أبو عبد الله، محمّد بن أحمد بن عثمان 673هـ/748هـ)، سيّر أعلام النّبلاء ، تحقيق، شُعيب الأرنؤوط ، الطّبعة الثّالثة ، (1405هـ/1985م) ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان.

7. السّيوطي(الإمام الحافظ جلال الدّين، عبد الرحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء ، خرّج أحاديثه، أحمد بن شعبان بن أحمد ، الطّبعة الأولى ،(1426هـ/2005م)، مكتبة الصفا ، القاهرة ، مصر.

8. الغزالي(أبو حامد بن محمّد ت505هـ)، إحياء علوم الدّين ، بذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، للإمام زين الدّين، أبي الفضل العراقي، ضبط وتوثيق، أحمد إبراهيم وأحمد عنابة ، طبعة أولى 1426هـ/2005م ، دار الكّتاب العربي ، بيروت ، لبنان.

9. .....، أيّها الولد ، تقديم وتحقيق وفهرسة، جميل إبراهيم حبيب ، (11 تشرين الأوّل1983م) ، مطبعة واو قشيت ، المطبعة الكاثوليكيّة ، ش م ل ، لبنان.

10. ابن قتيبة الدّينوري(أبو محمّد، عبد الله بن مسلم 213هـ-828م/276هـ-889م)، المعارف ، حققّه وقدّم له، الدكتور ثروت عكاشة ، الطّبعة الثّانية منقّحة ، دار المعارف.

11. علي سامّي النشّار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الطّبعة الأولى (1429هـ/2007م) ، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة ، القاهرة ، مصر.

12. علي محمّد الصـلاّبي، الدولة الأُمويّة ، الطّبعة الأولى (1426هـــ/2005م) ، مؤسّسة إقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة ، الفسطاط.

13. صـليبا(جميل)، المعجم الفلسـفي بالألفاظ العربيّة والفرنسـيّة والإنجليزيّة واللاّتنيّة ، طبعة1979م ، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لبنان.

الهوامش:

(1) ابن الجوْزي، أبو الفرج بنُ الجوْزي، الشيخ الإمّام العلاّمة الحافظ المفسّر، شيخ الإسلام، مفخرة العراق، جمال الدّين أبو الفرج، عبد الرّحمن بن علي بن محمّد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النّضر بن القاسم بن محمّد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرّحمن بن الفقيه القاسم بن محمّد بن خليفة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– أبوبكر الصديق –رضيّ الله عنه– القَرَشي التّميمي البَكري البغدادي، الواعظ، ولد سنة(509هـ–510هـ/1116م–1117م . أنظر، الذّهبي(الإمام شمس الدّين، أبو عبد الله، محمّد بن أحمد بن عثمان 673هـ/748هـ)، سيّر أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسّة الرّسالة ، الطّبعة الثّالثة ، (1405هـ/1985م) ، ج21 ، بيروت ، لبنان ، ص365.

(2) التّصانيف. ذكر المؤرّخ الذّهبي قائمة لمصنّفاته. أنظر، الذهبي: المصدر نفسه ، ص ص368، 369 .

(3) ابن الجوْزي(أبوالفرج)، لفتةُ الكبد في نصيحة الولد نصح بها ولده أبا القاسم، بدر الدّين علي المولود (551هـ– ت 630هـ)، شرح وتحقيق: أشرف عبد المقصود بن عبد الرّحيم –عفا الله عنه–، مكتبة الإمّام البخاري ، ط1 ، 1412هـ ، الإسماعيليّة ، مصر ، ص25.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) نفسه.

(7) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص26.

(8) نفسه.

(9) نفسه.

(10) نفسه.

(11) ابن الجوزي: المصدر نفسه ، ص27.

(12) نفسه.

(13) أبو حامد الغزالي، محمّد بن محمّد بن أحمد، الإمّام زين الدّين، أبو حامد الغزالي، الطُوسي الشافعي، ولد بطُوس، ثاني مدن خُراسان عام(450هـ/1059م–505هـ/1112م)، نشأ في أسرةٍ متوسّطة، متمسّكة بالإسلام، من أبٍ

صالح يعمل في غزل الصوف، و يبيعه في دكانٍ له بطُوس، فنيْسَابور، بدأ تعلّمه بطُوس، و تعلّم الفقه بنَيْسابور، لزم إمّام الحرمين "أبو المعالي الجُوَيْني" حتّى تخرّج بعد حفظه للقرآن، خرج بعد وفاة الجُويني إلى العراق، واتّصل بالوزير "نظام الملك" الذي كان مجلسه مجمع أهل العلم، فولاّه التّدريس بمدرسته النّظاميّة ببغداد، توفيّ عام(505هـ/1111م)، دفن بطوس. أنظر، أحمد إبراهيم وأحمد عناية: مقدّمة الكتاب، الغزالي(أبو حامد)، إحياء علوم الدّين بذيله المغْني عن حمل الأسفار للإمّام زين الدّين، أبي الفضل العراقي، ضبط وتوثيق، أحمد إبراهيم وأحمد عنابة، طبعة أولى ، (1426هـ /2005م) دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ج1، ص7.

(14) الغزالي(أبو حامد): أيّها الولد، تقديم وتحقيق وفهرسة، جميل إبراهيم حبيب ، مطبعة واو قشيت ، المطبعة الكاثوليكيّة ، ش م ل ، 11 تشرين الأوّل1983م ، لبنان ، ص 21 .

(15) "اعلم يا بنيّ، وفقّك الله للصواب أنّه لم يتميّز الآدمي بالعقل إلّا ليعمل بمقتضاه فاستحضِر عقلك، واعمل فكرك، واخلُ بنفسك، تعلّم بالدّليل أنّك مخلوق مكلّف، وأنّ عليك فرائضًا أنت مطالبٌ بها، وأنّ الملَكَين تحصيان ألفاظك ونظراتك، وأنّ أنفاس الحيّ خُطاه إلى أجله ومقدار اللّبْث في الدّنيا قليل والحبْس في القبور طويل والعذاب على موافقة الهوى وبيل، فأين لذّة أمس رحلت وأبقت ندمًا؟، وأين شهوة النّفس، كم نكّست رأسًا وأزلّت قدمًا ؟، وما سعد من سعد إلّا بخلاف هواه، ولا شقيّ من شقي إلّا بإيثار دنياه، فاعتبِر بمن مضى من الملوك والزّهاد، أين لذّة هؤلاء؟، وأين تعب أولئك؟، بقيّ الثواب الجزيل والذّكر الجميل للصالحين والقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين، وكأنّه ما جاع ولا شبع من شبع والكسل عن الفضايل بئس الرّفيق، وحبّ الرّاحة يُورث من النّدم ما يرْبِى على كلّ لذّة، فانتبه واتعب لنفسك. أنظر، ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص ص28، 29.

(16) ذكر المؤرّخ الإمام الذهبي، نقلًا عن غيره "ولما ترعرع حملته عمّته إلى ابن ناصر، فأسمعه الكثير، وأحبّ الوعْظ، ولهج به وهو مراهق، فوعظ النّاس وهو صبي. أنظر، الذهبي: مصدر سابق ، ص 370.

(17) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص29 .

(18) نفسه.

(19) الزّهـد، في اللغة، ترْك الميل إلى الشيء، نوعان:في الحرام وفي الحلال، فإذا كان في الحرام، كان فرضًا، وإن كان في الحلال، كان فضلًا، أمّا اصطلاحًا، فبُغض الدنيا والإعراض عن شهواتها، قريبًا من معنى التّقشف؛ لأنّ التّقشف ترك التّرفه والنّعمة ومحاربة النّفس في سبيل الوصول إلى الكمال الأخلاقي وقيل:"الزّهد ترك راحة الدّنيا، طلبًا للآخرة". أنظر، صليبا(جميل)، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة واللاّتينيّة ، طبعة1979م، دار الكتاب اللّبناني ، بيروت ، لبنان ، ص ص641 ، 642 . ؛ الذّهبي، سيّر أعلام النّبلاء ، ج3 ، ص331وما بعدها.

(20) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص29 .

(21) نفسه.

(22) نفسه.

(23) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص30.

(24) نفسه.

(25) نفسه.

(26) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص31.

(27) الفقه، معرفة أحكام الله في أفعال المكلّفين بالوجود، الحذَر، النّدْب، الكراهة، الإباحة، هي متلقّاة من الكتاب والسنّة، وما نصّبه الشارع لمعرفتها من الأدّلة، فإذا أُستخرجت من تلك الأدّلة، قيل لها: "فقه"، كان السّلف يستخرجونها من تلك الأدّلة، على اختلافٍ فيما بينهم. أنظر، ابن خلدون(عبد الرّحمن)، المقدّمة ، الطّبعة السّابعة ، (1409ه/1989م) ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ص445.

(28) ابن الجوْزي: مصدر سابق، ص31 .

(29)يقول المؤرّخ الذهبي عن الإمام ابن الجوْزي: "هو حاملُ الوعظ والقيّم بفنونه، مع الشكل الحسن والصوت الطيّب والوقع في النّفوس وحُسن السيرة، وكان بحرًا في التّفسير، علاّمة في السّير والتّاريخ، موصوفًا بحُسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهًا عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيّد المشاركة في الطّب، ذا تفنُّن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكبابٍ على الجمع والتّصنيف...ما عرفتُ أحدًا صنّف ما صنّف. أنظر، الذهبي، سيّر أعلام النّبلاء ، ج21 ، ص 367 .

(30) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص31 .

(31) نفسه.

(32) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص33.

(33) نفسه.

(34) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص34.

(35) نفسه.

(36) للجاحظ رأيٌ في تصنيف المعلِّمين وتمجيد بعضهم " أمّا عنده، فالمعلّمون على ضربين، فهم رجال ارتفعوا على تعليم أولاد العامّة إلى تعليم أولاد الخاصّة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصّة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشّحين للخلافة... فإنْ ذهبوا إلى معلّمي كتاتيب العرب، فإنّ لكلّ قومٍ حاشية وسَفَلة... و فيهم الفقهاء والشعراء و الخطباء". أنظر، الجاحظ(عمرو بن بحرين محبوب ت255ه)، البيان والتّبيّين ، الطّبعة الأولى ، (1430ه/2009م) ، دار إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان ، ج1 ، ص ص169 ،170.

(37) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص34 .

(38) نفسه.

(39) قائمة مطوّلة عن شيوخ أساتذة ابن الجوْزي. أنظر، الذهبي: مصدر سابق ، ج21 ، ص366.

(40) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص34.

(41) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص35.

(42) نفسه.

(43) تفاصيلٌ أكثر. أنظر، ابن جماعة(بدر الدّين، محمّد بن سعد الله بن جماعة الكِناني الشافعي 639هـ /733هـ)، تذكرة السّامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلّم وبذيله ثلاثة ملاحق مفيدة، اعتنى به، محمّد بن مهدي العجمي، الطّبعة الثالثة ، (1433هـ 2012م) ، طبعة منقّحة ومزيدة ، دار البشائر الإسلاميّة ، بيروت ، لبنان ، ص33 ومابعدها.

(44)ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص35.

(45) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص36.

(46) في كتاب المعلِّمين يقول الجاحظ "ولولا الكُتاب لاختلفت أخبار الماضين، وانقطعت أخبار الماضين، ولولا الكُتّاب ماتمّ تدبير، ولا استقامت الأمور...والمعلّمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن وروّاض المهارة... ولو نظرت من جهة النّظر، علمت أنّ النّعمة فيهم عظيمة سابقة والشكر عليها لازم واجب. أنظر، الجاحظ، رسائل الجاحظ(الرّسائل الأدبيّة) ، قدّم لها وبوّبها، الدّكتور علي بوملحم ، الطّبعة الأخيرة2004م ، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان ، ص ص199، 200.

(47) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص36 .

(48) نفسه.

(49) في رسالة "الحاسد والمحسود"، يقول الجاحظ عن الحسد: " منه يتولّد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة ومنتج كلّ وحشة ومفرّق كلّ جماعة وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء. أنظر، الجاحظ، الرسائل الأدبيّة ، ص116.

(50)ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص36 .

(51) نفسه.

(52) "كان ابن الجوْزي لا يضيّع من زمانه شيئًا، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في كلّ علمٍ مشاركة". أنظر، الذهبي، مصدر سابق ، ج21 ، ص377 .

(53) ابن الجوْزي، مصدر سابق ، ص36.

(54)"كان ابن الجوْزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النّغمة، موزون الحركات والنّغمات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مئة ألف أو يزيدون". أنظر ، الذهبي ، مصدر سابق ، ص 377.

(55) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص36.

(56) ابن الجوزي، المصدر نفسه ، ص37.

(57) نفسه.

(58) نفسه.

(59) نفسه.

(60) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص38.

(61) نفسه.

(62) نفسه.

(63) يقدّم المؤرّخ ابن خلدون لإصلاح النّفس تلخيصًا وتوضيحًا لِمَا رسم الحسن البصري لمذهب الزّهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، "اختصّوا بمآخذ مُدركة لهم، وذلك أنَّ الإنسان بما هو إنسان، إنَّما يتميّز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان، إدراك للعلوم والمعارف، من اليقين والظّن والشّك والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والسُكر وأمثال ذلك، فالرّوْح العاقل والمتصرّف في البدن، تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي تميَزَ بها الإنسان وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشأ العلم من الأدِلّة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به والنشاط عن الحُمام والكسل عن الإعياء، وكذلك المريد في مُجاهدته وعبادته لا بدّ وأن ينشأ له عن كُتَل مُجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال، إمّا أن تكون نوع عبادة، فتُرَسَّخ وتصير مقامًا للمريد، وإمّا أن لا تكون عبادة، وإنّما تكون صفة حاصلة للنّفس، من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أوغير ذلك من المقامات، ولا يزال المريد يترقّى من مقام إلى مقامٍ، إلى أن ينتهي إلى التّوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسّعادة". أنظر، ابن خلدون، المقدّمة ، ص468.

(64) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص39.

(65) رابعة العَدويـة، البَصْريّة الزّاهدة العابدة الخاشعة، "أمّ عمرو"، رابعة العدويّة بنت إسماعيل، ولاؤُها للعَتْكبيّين، حمل النّاس عن أمّها الحكمة، عاشت ثمانين عامًا، توفيّت عام(180ه/796م). أنظر، الذهبي، سيّر أعلام النبلاء ، ج9 ، ص ص241، 242.

(66) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص39-42.

(67) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص47.

(68) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص48.

(69) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص48، 49 .

(70) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص49.

(71) نفسه.

(72) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص50.

(73) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص51.

(74) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص51، 52 .

(75))ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص 52 وما بعدها.

(76) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص55 وما بعدها .

(77))ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص59 .

(78) عَطاءُ بن أبي رَبَاح: عطاء بن أَسْلَمْ، من ولد الجند، وأمّه سوداء، تسمّى "بَرَكة"، نشا بمكّة، وتعلّم بها الكتّاب، وكان مَوْلَى لبني فِهر، ويكنّى: "أبا فِهر"، وكان أسود، أعور، أفطس، أشَلّ، أعرج، ثمّ عَمى بعد ذلك، وكان يعقوب بن عَطاء

ولده ، قد حجّ سبعين حجّة، ودخل على الخليفة عبد الملك بن مروان، فأجلسه بين يديْه فقال: "حاجتُك، يا أبا محمّد"، فقال: "حرّم الله وحرّم رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، فتعاهَدْه، قال: "نعم"، ثمّ قال: "اتقّ الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنّ بهم بلغْتَ هذه المنزلة فلا تقطعْ عنهم الأرزاق مَنْ هو ببابك ومَنْ هو ناءٍ عن بابك وأنتم مسؤولٌ عنهم"، قال: "أفعلُ"، ثمّ قام، ولم يسألْه لنفسه حاجة، فقال عبد الملك: "هذا وأبيكَ الشّرف والسُّؤْدَد"، ومات سنة(115هـ/733م)، وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة. أنظر، ابن قتيبة الدّينوري(أبو محمّد، عبد الله بن مسلم 213هـ–828م/276هـ–889م)، المعارف ، حقّقه وقدّم له، الدّكتور ثروت عكاشة ، الطّبعة الثّانيّة منقّحة ، دار المعارف ، ص 444.

(79) الخليفة سليمان بن عبد الملك(96هـ/715م ـ 99هـ/718م)، أبو أيوب، مولده سنة (60هـ/680م)، كان من خِيار ملوك بني أُمّيّة، وليّ الخلافة بعهدٍ من أبيه بعد أخيه في جمادي الآخرة سنة (96هـ/715م)، كان فصيحًا ومفوّهًا ومُؤثرًا للعدل ومحبًّا للغزو، مات غازيًا بدابق. أنظر، السّيوطي(الإمّام جلال الدّين، عبد الرّحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء ، خرّج أحاديثه، أحمد بن شعبان بن أحمد ، ط1، (1426هـ/2005م) ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، مصر ، ص184.

(80) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص60 .

(81) ابن قتيبة الدّينوري(أبومحمّد عبد الله بن مسلم 213هـ–828م/276هـ–889م) : المعارف ، حقّقه وقدّم له، الدكتور ثروت عكاشة، الطّبعة الثّانية منقحة، دار المعارف ، ص547.

(82) وُصِف الحسن بأنَّه من المتصوفة السّنيّين أنظر،علئ محمّد الصلاّبي:الدّولة الأموية، مؤسسّة إقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، الفسطاط، الطّبعة الأولى 1426هـ/2005م، ج2، ص297.

(83) الحسن البصري، أبو الحسن بن أبي الحسن سَيار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، يقال: "مؤلى أبي اليُسر، كعب بن عمرو السُلَّمي"، أمّه، مَولاة لأمّ سَلَمة، أمّ المؤمنين المخزوميّة، أبوه يَسار، من سبْي مَيْسان، سكن المدينة، أعتق وتزوّج بها في خلافة عمر، فولد ابنه الحسن، أمّه خيرة، نشأ بوادي القرى، سيّد البصرة علمًا وعملًا، مات عام(110هـ/728م)، عاش ثمانية وثمانين عامًا. أنظر، الذهبي، سيّر أعلام النبلاء ، ج4 ، ص624وما بعدها.؛ ابن قتيبة، المعارف ، ص ص 440، 441 .

(84) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص ص60، 61 .

(85) علي سامي النشّار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الطّبعة الأولى ،(1429هـ/2007م) ، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة ، القاهرة ، مصر ، ج3 ، ص1298 –1302 .

(86) ابن الجوْزي: مصدر سابق، ص62.

(87) ابن الجوْزي: لفتة الكبد ، ص63 .

(88) ابن الجوْزي: المصدر نفسه ، ص64.

(89) سعيد بن المسَيب بن حزن بن أبي وهب، من بني عمران بن مخزوم، وأمّه سُلّميّة، ويكنّى: "أبا محمّد"، وكان أبوه يتجر بالزّيت، وأعبر النّاس للرّؤيا، وكانت ابنة أبي هريرة تحت سعيد بن المسيّب، مولده لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وتوفيّ بالمدينة سنة (94ه/713م). أنظر، ابن قتيبة، المعارف ، ص 438 .

(90)سفيان الثَوْري بن سعيد بن مسروق، ويكنّى:" أبا عبد الله"، ونسب إلى ثَوْر بن عبد مناة بن أدٌّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر ، ويقال: "لثوْر أطحل"، ولد سنة (97ه-716م)، ومات سفيان بالبصرة متواريًا من السّلطان سنة (161ه-778م)، وهو ابن أربع وستّين. أنظر، ابن قتيبة، المصدر نفسه ، ص 497 .

(91) أحمد بن حنبل، الإمّام أبو عبد الله بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن وائل الذّهلي الشّيباني، المروزي، ثمّ البغدادي ولد عام(164ه-781م)، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، أعلم بفقه الحديث ومعانيه، دائم التّعوذّ من رأي الخوارج ومن البدع، يقول: "لا يفلح من تعاطى الكلام بأنّ القرآن مخلوق"، فضُرب في عهد الخليفة المعتصم بالله، مات عام(241ه-861م).أنظر، الذّهبي، سيّر النّبلاء ، ج11، ص179.

(92) ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص ص67، 68 .

(93)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص69، 70 .

(94)يقول الإمام أبو حامد الغزالي فيما يجب على تلميذه تزّكه"أن لا تقبل شيئًا من عطايا الأمراء وهداياهم، وإن علمتَ أنّها من الحلال؛ لأنّ الطمع منهم يُفسد الدّين؛ لأنّه يتولّد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة بظلمهم وهذا كلّه فساد في الدّين وأقلّ مضرّته أنّك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنانيرهم، أحببتهم ومن أحبّ أحدًا، يحبّ طول عمره وبقائه بالضرورة . أنظر، الغزالي، أيّها الولد ، ص ص46، 47 .

(95)ابن الجوْزي، لفتة الكبد ، ص70 .

(96) ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص71، 72 .

(97)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص 73، 74 .

(98)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص74 .

(99)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص75 .

(100)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص76 .

(101)ابن الجوْزي، المصدر نفسه ، ص ص 77، 78 .

قائمة المصادر والمراجع:

1. الجاحظ(عمرو بن بحربن محبوب ت255هـ)، رسائل الجاحظ(الرّسائل الأدبيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم ، الطّبعة الأخيرة2004م، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان.
2. .....، البيان والتّبيّين ، الطّبعة الأولى ، (1430هـ/2009م) ، دار إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان.
3. ابن جَماعة الكِناني(بدر الدّين، محمّد بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي 639هـ 733هـ)، تذكرة السّامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم وبذيله ثلاثة ملاحق مفيدة ، اعتنى به، محمّد بن مهدي العجمي ، الطبعة الثّالثة ، (1433هـ 2012م) ، طبعة منقحة ومزيدة ، دار البشائر الإسلاميّة ، بيروت، لبنان.
4. ابن الجوْزي(أبو الفرج)، لفتة الكبد في نصيحة الولد نصح بها ولده أبا القاسم، بدر الدّين علي المولود 551هـ ت 630هـ، شرح وتحقيق، أشرف عبد المقصود بن عبد الرّحيم –عفا الله عنه– ، ط1 ، 1412هـ، مكتبة الإمام البخاري ، مصر، الإسماعيليّة.
5. ابن خلدون(عبد الرحمن)، المقدّمة ، الطّبعة السّابعة ، (1409هـ/1989م) ، دار القلم، بيروت ، لبنان .
6. الذّهبي(الإمام شمس الدّين أبو عبد الله، محمّد بن أحمد بن عثمان 673هـ/748هـ)، سيّر أعلام النّبلاء ، تحقيق، شُعيب الأرنؤوط ، الطّبعة الثّالثة ، (1405هـ/1985م) ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان.
7. السّيوطي(الإمام الحافظ جلال الدّين، عبد الرحمن بن أبي بكر)، تاريخ الخلفاء ، خرّج أحاديثه، أحمد بن شعبان بن أحمد ، الطّبعة الأولى ،(1426هـ/2005م)، مكتبة الصفا ، القاهرة ، مصر.
8. الغزالي(أبو حامد بن محمّد ت505هـ)، إحياء علوم الدّين ، بذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، للإمام زين الدّين، أبي الفضل العراقي، ضبط وتوثيق،

أحمد إبراهيم وأحمد عنابة ، طبعة أولى 1426هـــــ/2005م ، دار الكّتاب العربي ، بيروت ، لبنان.

9. .....، أيّها الولد ، تقديم وتحقيق وفهرســـة، جميل إبراهيم حبيب ، (11 تشرين الأوّل1983م) ، مطبعة واو قشيت ، المطبعة الكاثوليكيّة ، ش م ل ، لبنان.

10. ابن قتيبة الدّينوري(أبو محمّد، عبد الله بن مسلم 213هـ-828م/276هـ-889م)، المعارف ، حققّه وقدّم له، الدكتور ثروت عكاشة ، الطّبعة الثّانية منقّحة ، دار المعارف.

11. علي سامّي النشّار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الطّبعة الأولى (1429هـــ/2007م) ، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة ، القاهرة ، مصر.

12. علي محمّد الصلاّبي، الدولة الأُمويّة ، الطّبعة الأولى (1426هـــ/2005م) ، مؤسّسة إقرأ للنّشر والتّوزيع والتّرجمة ، الفسطاط.

13. صـليبا(جميل)، المعجم الفلسـفي بالألفاظ العربيّة والفرنسـيّة والإنجليزيّة واللاّتنيّة ، طبعة1979م ، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لبنان.